أبو الوفا التفتازانى ودراسات التصوف الإسلامى

الدكتور أحمد عبد الحليم عطية

أبو الوفا التفتازانى ودراسات التصوف الإسلامى

الدكتور أحمد عبد الحليم عطية

من الصعب الحديث عن أستاذنا المرحوم الدكتور أبو الوفا الغنيمى التفتازانى، أهم باحثى التصوف الاسلامى فى العقود الثلاثة الأخيرة. الذى انتقل إلى رحاب الله فى الثامن والعشرين من يونية ١٩٩٤. فقد جمع بين نزعة صوفية يعرفها الجميع عنه، تجلت فى نفسه الراضية المطمئنة وسلوكه الدينى الملتزم وممارساته الحياتية العامة ـ فهو شيخ مشايخ الطرق الصوفية فى مصر، ونائب رئيس جامعة القاهرة السابق، ورئيس الجمعية الفلسفية المصرية ـ وهو فى نفس الوقت باحث أكاديمى متميز صاحب منهج علمى دقيق فى دراسة التصوف الاسلامى: تاريخه وقضاياه واعلامه.

فهو يجسد الناحية العملية والنظرية للتصوف، فهو عملياً ورعاً زاهداً عابداً عارفاً مطمئناً، ومن حيث النظر فهو باحثا فاحصاً مدققا محققا، وهو كما كتبت فى اهداء بحثى عن «الأخلاق والحياة الأخلاقية فى الاسلام» ـ دراسة وتعليق على ما كتبه دى بور والذى كتب له مقدمته ـ مثالاً ونموذجاً وواقعاً حياً للخلق الاسلامى.

ومن هنا فهو يجسد بحق فهمه للتصوف الذى أشار إليه فى مقدمة الطبعة الأولى من كتابه عن الصوفى المصرى ابن عطاء الله السكندرى(١) يقول: «والتصوف فى رأينا منهج كامل فى الحياة، والصوفى المحقق هو الذى لا يرى تعارضاً بين حياته التعبدية وحياة المجتمع الذى عاش فيه، بل هو الذى يستعين بحياة التعبد على حياة المجتمع وما

١ـ ينتمى الدكتور التفتازانى لمدرسة الشيخ مصطفى عبد الرازق ـ وإن لم يتلمذ عليه مباشرة ـ كما يؤكد لنا فى دراسته عنه فى الكتاب التذكارى الذى أصدره المجلس الأعلى للثقافة، وذلك فى توجيه الاهتمام للبحث فى قضايا واعلام مصرية كما فعل الشيخ مصطفى فى دراسته عن الامام الشافعى وعن الشاعر المصرى البهاء زهير، وهذا ما فعله تلميذه الدكتور توفيق الطويل حين اتجه إلى بحث التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى، والإمام الشعرانى إمام التصوف فى عصره، وكذلك الدكتور محمد مصطفى حلمى الذى جعل موضوع بحثه عن ابن الفارض، وسار أستاذنا الدكتور التفتازانى فى نفس الطريق حين وجه اهتمامه إلى ابن عطاء الله السكندرى.

فيها من مشقة وكفاح، والتصوف بهذا الاعتبار يعد «فلسفة إيجابية» تضفى على حياة الإنسان معنى ساميا»(٢). فالتصوف الاسلامى عنده هو علم الأخلاق الدينية، والطرق الصوفية بالتالى هى المدارس الروحية التى نشأت فى الاسلام من أجل تربية السالكين تربية إسلامية صحيحة(٣).

ويعد الدكتور التفتازانى شيخ باحثى التصوف، وإمام الدراسات الصوفية الاسلامية. وهو ـ ومعه المرحوم الدكتور أبو العلا عفيفى، الرائد الأول(٤) والمرحوم الدكتور محمد مصطفى حلمى خريج الدفعة الأولى من الجامعة المصرية(٥)، والأستاذ الدكتور محمد على أبو ريان أطال الله بقائه(٦) ـ من أهم علماء التصوف من المسلمين المعاصرين الذين حددوا مجاله، ورتبوا موضوعاته، وكشفوا النقاب عن شخصياته، وبالجملة صاغوا الأطر النظرية فى هذا المجال لما يأتى بعدهم فى درس التصوف، والكشف عن أبعاده، والتعريف بالتجربة الصوفية وخصائصها، والأهم من ذلك وضع المنهج العلمى لهذا الدرس، ومن بين هؤلاء العلماء الرواد ينفرد التفتازانى بتحديد مكانة التصوف بين علوم الفكر الاسلامى متابعاً من القدماء كلا من: القشيرى صاحب «الرسالة»، والطوسى صاحب «اللمع» والكلاباذى صاحب «التعرف» والغزالى «المنقذ من الضلال». ومن المحدثين كل من الشيخ مصطفى عبد الرازق صاحب «التمهيد»، ومحمد مصطفى حلمى صاحب «الحياة الروحية فى الاسلام» وكل من إبراهيم مدكور وتوفيق الطويل. حيث يحدد لنا (الفكر الاسلامى فى مجال العلوم الشرعية) فالفكر الاسلامى، أو الفلسفة الاسلامية عنده هى تلك الفلسفة التى نشأت وتطورت فى ظل الاسلام وحضارته،

٢ـ د. أبو الوفا التفتازانى: ابن عطاء الله السكندرى وتصوفه، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، تقديم الطبعة الأولى ص ل.

٣ـ د. أبو الوفا التفتازانى: الطرق الصوفية فى مصر، رسائل المجلس الأعلى للطرق الصوفية ، ص ٥.

٤ـ راجع دراسة الدكتور محمد على أبو ريان عنه، مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية، المجلد ٢٠ ص ٥ ـ ١٨.

٥ـ راجع دراسة الدكتور أبو الوفا التفتازانى «محمد مصطفى حلمى ودراسات التصوف الاسلامى»، مجلة الفكر المعاصر، القاهرة، العدد ٥٢ يونية ١٩٦٩ ص ١٦ ـ ٢٤.

٦ـ أنظر بحثنا عنه فى ندوة الجمعية الفلسفية المصرية عن مدرسة الاسكندرية الفلسفية المعاصرة «أبو ريان نموذجاً».

وارتبطت به بأنواع مختلفة من الارتباط. أما الدفاع عن عقائده، أو بالفهم الدقيق لأحكامه الشرعية العملية الفروعية واستنباطها عن أدلتها وأصولها، أو العناية بجانب التذوق الروحى لأحكامه وأخلاقه، أو بالملائمة والتقريب بينه وبين فلسفات أخرى وافدة إلى المسلمين، ويميز بين نوعين من الفكر الفلسفى فى الإسلام.

أولهما: الفكر الفلسفى فى مجال العلوم الشرعية، وفى هذا الفكر تتجلى قدرة المسلمين على الابتكار بوضوح.

وثانيهما: الفكر الفلسفى الخالص، وهذا الفكر الأخير يقتضى معالجة المسائل المطروحة للبحث على نحو خاص بصرف النظر عن ارتباط هذه المسائل أساساً بالشرعيات أو عدم ارتباطها.

وقد أفاض الدكتور التفتازانى فى تلك المجالات السابقة التى تدخل فى نطاق (الفكر الفلسفى فى مجال العلوم الشرعية) كتابة وبحثاً، دراسة وتحقيقاً، فى مجالات: علم الكلام، والفلسفة وأخيراً فى ميدانه الرحب الأوسع «التصوف الاسلامى».

واهتمام التفتازانى بالتصوف يفوق اهتمامه بالعلوم الاسلامية الأخرى، شغل به، وعاش له وكتب فيه أدق وأعمق أبحاثه.

وهو يحدد للتصوف خمس خصائص نفسية وأخلاقية وابستمولوجية هى: الترقى الأخلاقى، الفناء فى الحقيقة المطلقة، العرفان الذوقى المباشر، الطمأنينة أو السعادة والزمرية فى التعبير(٧). وبناء على ذلك يقدم لنا تعريفاً للتصوف يعد من وجهة نظره أشمل من غيره وهو: التصوف فلسفة حياة تهدف إلى الترقى بالنفس الإنسانية أخلاقياً وتتحقق بواسطة رياضيات عملية معينة تؤدى إلى الشعور فى بعض الأحيان بالفناء فى الحقيقة الاسمى، والعرفان بها ذوقاً لا عقلاً، وثمرتها السعادة الروحية، ويصعب التعبير عنها بألفاظ اللغة العادية لأنها وجدانية الطابع وذاتية»(٨).

٧ـ د. أبو الوفا التفتازانى: مدخل إلى التصوف الاسلامى، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط ٣ القاهرة، ١٩٩١ ص ٦ ـ ٨.

٨ـ المصدر السابق ص ٨.

ونستطيع أن نرصد جهوده فى مجال التصوف الإسلامى فى الآتى:

أولا: كتب عن الطرق الصوفية بمصر، أولا بمجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٦٨، ثم دراسة مستقلة فى رسائل المجلس الأعلى للطرق الصوفية، كما كتب عن الطريقة الأكبرية الخاصة بابن عربى الشيخ الأكبر فى الكتاب التذكارى عنه(٩). والطريقة السبعينية وأثرها فى تلاميذه(١٠).

ثانياً: توضيح موقف الفرق الاسلامية من التصوف كما فى دراسته عن «السنة والشيعة والصوفية» ودراسته عن «الوهابية والتصوف» بالعدد الأول من مجلة الاسلام والتصوف ١٩٥٨. كذلك فى ثنايا دراسته عن «ابن سبعين وفلسفته الصوفية»(١١) وابن عطاء الله السكندرى وتصوفه(١٢) والطريقة الأكبرية حيث أبان موقف الفقهاء من مذاهب هؤلاء وحين امتحن آرائهم على ضوء الكتاب والسنة.

ثالثاً: الكشف عن شخصيات التصوف الاسلامى الهامة مثل: ابن عطاء الله السكندرى الذى جعله موضوعاً لدراسته فى الماجستير ١٩٥٥؛ وابن عطاء الله شخصية صوفية مصرية لها خطرها، ويعد صاحبها بحق مثلاً للتصوف المصرى فى أوائل القرن الثامن الهجرى، وتتجاوز أهميته التصوف الاسلامى إلى التصوف المسيحى كما يرجح اسين بلاثيوس، بالاضافة إلى كونه أديب بارع ذو طريقة فى البلاغة ومكانة مرموقة فى تاريخ الأدب الصوفى العربى، وإمام من أئمة المدرسة الشاذلية(١٣). ومثل ابن سبعين

٩ـ وقد أوضح فى بحثه: لماذا سميت طريقة ابن عربى بالأكبرية، شيوخها وأسانيدها، هل هى فرع من الطريقة القادرية، مع بيان منهجها وغايتها، وأصولها العامة وآدابها: السلوك والسفر، ضرورة الشيخ للمريد، العزلة والخلوة، الصمت والجوع والسهر، الذكر وأثر الرياضيات العملية فى نفسية السالك، ومكانة ابن عربى كشيخ للطريقة الأكبرية، أتباع الأكبرية، وأخيراً لماذا لم تنتشر الطريقة الأكبرية انتشاراً واسعاً.

١٠ـ د. أبو الوفا التفتازانى: ابن سبعين وفلسفته الصوفية، دار الكتاب اللبنانى، بيروت، ١٩٧٣ ص ١٦٦ ـ ١٧٦.

١١ـ المرجع السابق ص ١٤٩ ـ ١٦٥.

١٢ـ د. ابو الوفا التفتازانى: ابن عطاء الله وتصوفه، ص٦٧.

١٣ـ المرجع نفسه ص١. وترجع اهمية ابن عطاء بالنسبة اليه فى تصوفه السنى الشاذلى المرتبط بالكتاب والسنة. والكتاب ينقسم الى قسمين الاول عن ابن عطاء السكندرى وعصره وحياته التصوفية وومصنفاته فى ثلاث فصول. والقسم الثانى «المذهب العطائى» فى فصول سبعة نتناول على التوالى: الفكرة الاساسية فى المذهب العطائى وهى إسقاط التدبير،=

لذى جعله موضوعاً للدكتوراه، ودراسة ابن سبعين كما يرى د. ابراهيم مدكور ليست بالأمر الهين، إلا أن الدكتور التفتازانى عالج دراسته علاجاً محكماً متبعاً المنهج التاريخى والمنهج المقارن، وقد استطاع أن يرسم صورة واضحة وكاملة لابن سبعين فى بيئته الخاصة والعامة، فعرف به وكشف عن مؤلفاته، وبين أثره ومنزلته وعرض لفلسفته محللاً آراءه المنطقية والميتافيزيقية مفصلا القول فى آرائه النفسية والأخلاقية، بالاضافة إلى تصوفه العملى من: صوم، ودعاء، وسفر، ومجاهدة، وخلوة ووحدة(١٤). والحقيقة أن شهادة الدكتور مدكور فى تقديمه لعمل التفتازانى تستحق التسجيل، ففى ابن سبعين - ولا شك - أصالة ملحوظة وجراءة نادرة، وقد عالجه باحث على مستواه(١٥).

ودرس أيضا ابن عباد النفرى الرندى قطب المدرسة الشاذلية، وشارح حكم ابن عطاء الله السكندرى(١٦). وكذلك ابن سبعين وحكيم الاشراق (السهروردى)(١٧).

كما وجه تلاميذه إلى كثير من الشخصيات الهامة فى التصوف الاسلامى؛ شخصيات مجهولة لم تحظ بالدراسة الأكاديمية العميقة مثل: صدر الدين القونوى حياته

= ثم النفس الإنسانية، ومجاهدة النفس فى الفصل الثالث، ثم النفس وآداب السلوك والنفس بين المقامات والاحوال، ثم المعرفة، واخيراً شهود الاحدية فى الوجود معقباً على ذلك بمناقشة بعض تأويلات المذهب العطائى فى الاحدية وتفسير الوجود، كذلك كتب عنه مرة ثانية فى سلسلة تراث الإنسانية تحت عنوان حكم بن عطاء الله السكندرى «المجلد الثالث» عدد ٤، ٥ ابريل ١٩٦٥.

١٤- والعمل الذى يقدمه لنا التفتازانى يتكون من قسمين الاول عن «ابن سبعين ومصنفاته ومنزلته واثره» ويقع فى فصول ثلاثة تدور حول: سيرة ابن سبعين، ومصنفاته موضحا اسلوبه وثبتاً بمصنفاته فى فلسفته الصوفية، واداب التصوف ورياضياته العملية وعلم الحروف والأسماء بالاضافة الى المصنفات المتحولة، والثالث يدور حول منزلته: فى رأى خصومه، والانصاره، وفى رأى فريق من الشاذلين، ثم منزلته فى الغرب المسيحى، موضحاً فضل الحضارة العربية الاسلامية على اوربا من خلال ما عرف بمسائل ابن سبعين أو المسائل الصقلية.

والقسم الثانى: فلسفة ابن سبعين فى ست فصول أولها عن الوحدة المطلقه، والثانى عن التحقيق والمحقق، والثالث منطق المحقق، والرابع النفس والعقل، والخامس الاخلاق النظرية، والسادس الخلاق العملية.

١٥- د. إبراهيم بيومى مدكور مقدمة كتاب ابن سبعين وفلسفته الصوفية ص١١.

١٦- د. ابو الوفا التفتازانى: ابن عباد الرندى: حياته ومؤلفاته بحث نشر بالغتين العربية والاسبانية بصحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد المجلد السادس العدد ١ - ٢ عام ١٩٥٨ ص٢٢١ - ٢٥٨.

١٧- ابو الوفا التفتازانى: ابن سبعين وحكيم الاشراق، الكتاب التذكارى القاهرة ١٩٧٤ ص٢٩١ - ٣٢١.

وفلسفته الصوفيـة التى درسها د. ابراهيم ياسين، آداب المنصورة(١٨). والذى بحث تحت إشرافـه أيضاً عن «حـال الفناء فى التصوف الاسـلامى». وأبو مدين التلمسانى حـياته وفلسفته الصوفية التى درسها د، مـحيى الدين عبد الحميد طاهر، آداب بنها والذى بحث أيضا تحت إشرافه «الوقت عند صوفية المسلمين». والنفرى وتصوفه الذى درسه د. جمال سعيد، آداب الـقاهرة ـ الخرطوم والذى بحث تحت إشرافه الوجود والعـدم فى فلسفة ابن عربى الصوفية وغيرهم.

رابعاً: دراسة موضوعات خاصة بابستمولوجـيا التصوف تتعلق بـ «المعرفة الصوفية: أداتها ومنهجها وموضوعاتها وغايتها عند صوفية المسلمين»(١٩) و «سيكولوجية التصوف» مـجلة علم النفس. و «الإدراك المبـاشـر عند الصـوفيـة»(٢٠) و «نظـرة إلى الـكشـف الصوفى»(٢١) ابن رشد والتصوف(٢٢).

خامساً: الاهتمام بآراء الفـلاسفة والمستشرقيـن والباحثين فى مجال التـصوف، فقد تعرض لرسل Russell ودراسته عن «التصوف والمنطق» فى مقالته عن الكشف الصوفى. كما أشار كثير خاصة فى دراسته لابن سبعين وابن عباد الرندى إلى جهود ودراسات اين بلاثيـوس المستشـرق الاسبـانى الذى أوضح تأثيـر التصوف الاسـلامى على التـصوف المسيحى. وتوقف فى دراسـة مستقلة أمام المسـتشرق الفرنسى مـاسنيون فى البحث الذى قدمه فى الاحتفال بالذكرى المئوية لميلاده عن «مـاسينيون ودراسة التصوف الاسلامى»(٢٣)

١٨ـ طبع هذين العملين ويقـوم الدكتور إبراهيم ياسين حالياً بدراسة موسعه عـن «التفتازانى وتعقـيل التصوف فى مصر» يعرض فيها لحياته وجهوده فى أعادة بناء التصوف على أساس عقلى.

١٩ـ مجلة الرسالة، القاهرية.

٢٠ـ مجلة علم النفس، القاهرة المجلد الرابع أكتوبر ١٩٤٩ ـ ١٩٥٠

٢١ـ د. ابو الوفا التـفتازانى: نظـرة إلى الكشف الصوفى، مجلة الفكـر المعاصر العـدد ٣٤، القاهرة ديـسمبر ١٩٦٧ ص٣٣ ـ ٤٠.

٢٢ـ د. ابو الوفا الـتفتـازانى: ابن رشد والتـصوف (بالانجليـزية) الكتاب التـذكارى عن ابن رشـد رائد العقـلانية، المجلس الاعلى للثقافه القاهرة ١٩٩٣ ص ٤١٥ ـ ٤١٩.

٢٣ـ د. ابو الوفا التفتازانى: ماسـينيون ودراسة التصوف الاسلامى، الكتاب التذكـارى فى الاحتفال بالذكرى المئوية لميلاده، جامعة القاهرة ١٩٨٣.

حيث يعرض لـه كرائد لدراسات التصوف ولجـهوده العلمية البـارزة. ويعرض لآرائه فى نشأة التـصوف الاسلامى، وهى آراء وجـدت موافقـة لديه واعتنقـها وطبقـها فى بعض دراساته(٢٤).

كمـا يعرض لآراء كل من نيكلسـون، وثولك ودوزى، وفون كـريمر وجـولدزيهر واوليرى، وهارتمان، وهورتن فى نشأة التصوف الاسلامى ويرد عليـهم رداً علمياً منهجياً مثبتاً النشأة الاسلامية للتصوف(٢٥).

سادساً: الدراسة التاريخـية الشاملة العامة كـما فى كتابه الأساسى الذى يعـد حالياً المرجع الكلاسيكى فى دراسة التصوف «مـدخل إلى التصوف الاسلامى». والذى يعرض فيه للخصائص العامة للتصوف ومفـهوم التصوف الاسلامى، ومراحله، ومصدر التصوف الاسلامـى وهل هو مصـدر أجنبى موضـحاً المصـدر الاسلامى للتـصوف من: الـقرآن الكريم، وحياة النبى وأخـلاقه وأقواله، وحياة الصحـابة وأقوالهم ثم يتناول فى الفصل الثانى حركة الزهد فى القرنين الأول والثانى موضحاً مفهوم الزهد فى الاسلام، وعوامل نشأته، ومدارس الزهد فى المدينة والبـصرة والكوفة ومصر. ثم تطور الزهد وخـصائصه وانتقاله من الزهد إلى التصوف. ويعرض بعد ذلك للتصوف فى القرنين الثالث والرابع مميزاً بين التصـوف والفقه موضحاً اتجاهان للتـصوف عارضاً للخصائص العـامة لتصوف القـرنين الثـالث والرابع وهو هنا يفـيض فى بيان الفـناء: الفناء فى التـوحيـد، الفناء والاتحاد، الفناء والحلول حتـى يستطيع أن يخصص الفصل الخامس لـلتصوف السنى فى القرن الخامس الهجرى خـاصة لدى: القشيرى ونقده لصوفية عصـره، والهروى وموقفه من أصحاب الشطح، والإمام الغزالى ونقده للمتكلمين والفلاسفة والباطنية».

ويدور الفصل السـادس حول التصـوف الفلسفى موضـحاً موضـوعاته وخصـائصه متناولاً السهـروردى المقتول وحكمة الاشراق، ووحدة الوجـود عند ابن عربى، والوحدة المطلقة عند ابـن سبعيـن، وشعراء الحب الالهى ووحـدة الشهود: ابن الفـارض، جلال

٢٤ـ د. ابو الوفا التفتازانى: مدخل الى التصوف الاسلامى، ص٧٤.

٢٥ـ المرجع السابق ص ٢٥ ـ ٥٥.

الدين الرومى. ويخصص الفصل السابع والأخير لتصوف أصحاب الطرق خاصة: القادرية، والرفاعية، والسهروردية، والشاذلية، والأحمدية، والبرهامية، والخلوتية.

سابعاً: ويمكن تحديد مهمة الدكتور التفتازانى وجهده ونظرته للتصوف بما قام به من توضيح لقضية التصوف فقد نبه إلى ما يعد صحيحاً وإيجابياً، وما يعد منحرفاً وسلبياً مثلما فعل القشيرى والطوسى فى أمانة وموضوعية، وبين أن الأحكام العامة على التصوف ليست علمية، كأن يقال أنه فلسفة سلبية، أو أنه دخيل على الاسلام أو مستمد من الهند أو فارس أو المسيحية أو اليونان ولهذا عنى ببيان مصدر التصوف فى الاسلام وتطوره عبر العصور ودوره فى اصلاح الفرد والنهوض بالمجتمع(٢٦).

ويتضح مما سبق الموضوعات التى شغل العالم الجليل سواء أكانت بحثاً عن طرق صوفية، أو شخصيات بارزة فى مجال التصوف، أو وصفا لطريق التصوف وأحواله ومقاماته، وناحيته السيكولوجية والابستمولوجية بحيث يوضح جهد العالم المتعمق وإلمامه بموضوعه وامتلاكه لناحية بحثه مما جعله بحق واحداً من أهم من تناولوا دراسات التصوف وأعمق من تناولوا الفكر الفلسفى فى مجال العلوم الشرعية الاسلامية.

ثامنا: منهجية الباحث العقلانية والتى تتمثل فى تناوله للتصوف رغم أنه أحد شيوخه البارزين بمنظور العالم وعقل المفكر وموضوعية وحياد الباحث المتجرد للحقيقة فلم تكن كتاباته وعظاً ولا أبحاثه خطباً بل انتهج نهجاً عقلياً تحليلياًمنطقياً كما يتجلى ذلك ويظهر فى بحثه «المعرفة الصوفية» الذى تناول فيه: الأهوال والمقامات طريق موصل إلى المعرفة، علم الظاهر والباطن، أداة المعرفة عند الصوفية، منهج الكشف عند الصوفية وطبيعة هذا المنهج، موضوع المعرفة الصوفية، غاية التحقق بالمعرفة الصوفية.

وفى النهاية نؤكد ما بدأنا به من تحقق عالمنا الجليل بروح التصوف سلوكاً وبحثاً مثالاً ونموذجاً وواقعاً حيا للخلق الاسلامى والبحث العلمى مما جعله بحق من أهم رواد الدراسات الاسلامية المعاصرة فى العربية.

٢٦- المرجع السابق ص ج.